أهمية القيم في العملية التعليمية دراسة استنباطية من القرآن الكريم

مصطفى محمد عبد الله حديد
كلية الدراسات الإسلامية ـ جامعة مصراتة
m.hadead@isl.misuratau.edu.ly

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي فضل أهل العلم ورفعهم درجات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فتعلم العلوم مطلب شرعي حثت عليه الرسالة المحمدية من أول بيان قرآني عالمي رفعت فيه شعار القراءة؛ لبيان أهميتها، وفضلها، ومكانتها، لإظهار البعد التوظيفي لها في تحقيق رقي الأمم.

وهذا التعلم لم يُترك دعوة مرسلة مهجورة الأركان، مخفية المعالم، إنما جاءت إشارات متفرقة في القرآن الكريم، وشذرات ربانية تبين تلازمية العملية التعليمية بمنظومة القيم والأخلاق، والأسس والمبادئ التي تعد الحصن لها لترتقي بأفرادها.

ولأهمية إظهار هذه التأصيلات القرآنية لمنظومة القيم في العملية التعليمية، جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على هذه الرؤية التي تزين طالب العلم ومعلمه، محاولة الإجابة على السؤال الرئيس التالي:

مشكلة الدراسة:

هل اعتنى القرآن الكريم بوضع رؤية تأصيلية للقيم في مسارات التعليم؟

أسئلة الدراسة:

تفرع عن السؤال الرئيس السابق جملة من الأسئلة، هي:

1/ ما مفهوم القيم؟

2/ هل ترتكز العملية التعليمية البناءة على توفر جملة من القيم؟

3/ ما الكيفية التي يمكن بها الحكم على القرآن الكريم أنه اعتنى بالتأسيس للقيم في عرض منظومة الأخلاق؟

أهداف الدراسة:

حاولت الدراسة تحقيق الأهداف التالية:

1/ بيان مفهوم القيم.

2/ توضيح أهمية القيم وأثرها الفاعل في ترتيب المنظومة التعليمية.

3/ إبراز المنهجية التي عرضت بها القيم في القرآن الكريم.

كل ذلك نظم تحت العنوان التالي: (أهمية القيم في العملية التعليمية، دراسة استنباطية من القرآن الكريم).

وسلكت لبيان تلك القيم الخطة التالية:

المقدمة:

المبحث الأول: مفهوم القيم وأهميتها.

المطلب الأول: معنى القيم.

المطلب الثاني: بيان فائدة القيم ودورها في العملية التدريسية.

المبحث الثاني: صور من القيم في القرآن الكريم.

المطلب الأول: مفاهيم مصطلحية للأخلاق والقيم.

الفرع الأول: مفهوم القيمة الأخلاقية.

الفرع الثاني: المفهوم المصطلحي للأخلاق.

المطلب الثاني: قيم أخلاقية.

الفرع الأول: الأمانة العلمية في التعليم.

الفرع الثاني: تكافؤ الفرص في العملية التعليمية.

الفرع الثالث: التقوى والتعليم.

المطلب الثالث: قيم عملية.

الفرع الأول: الهمة والجد.

الفرع الثاني: إرجاع الأمر لأهله.

الفرع الثالث: التدرج في التعليم

خاتمة

المبحث الأول : مفهوم القيم وأهميتها

المطلب الأول : معنى القيم

أولا: المفهوم اللغوي:

أصل القيمة الواو، أي: (قوم)، وأصله أنك تقيم هذا مكان ذاك[1]، والأمر القيم: المستقيم[2].

ثانيا: المفهوم المصطلحي:

القيمة: « صفة في شيء تجعله موضع تقدير واحترام »[3].

أو « هي علم السلوك التفضيلي ... أو هي طراز الشروع المفضل في ميادين الحياة المختلفة »[4].

ويمكن تعريفها بأنها: « الأفكار الاعتقادية الانفعالية النفسية المتعلقة بفائدة الأشياء في حياة المجتمع »[5].

كما عرفت موصوفة بأنها: « ضرب من النظام موجود في الوجود يميل إليه الإنسان بالطبيعة في القيم الإيجابية وينفر منه في القيم السلبية »[6].

---

(1) ينظر معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء الرازي، ت/ عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م، مادة (قوم)، 5/ 43.

(2) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط/ الثالثة، 1414هـ، فصل القاف، مادة (قوم)، 12/ 502.

(3) القيم الإسلامية، كتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات.

(4) علم الأخلاق الإسلامية، مقداد يالجن محمد علي، دار عالم الكتب، الرياض، ط/ الأولى 1413هـ، 1992م، ط/ الثانية، 1424هـ، 2003م، ص330.

(5) المصدر السابق، ص331، نقلا عن كتاب: القيم والعادات الاجتماعية، فوزية دياب.

(6) المصدر نفسه، نقلا عن كتاب: القيم الأخلاقية، د. عادل العوا.

المطلب الثاني: بيان فائدة القيم ودورها في العملية التدريسية

« من الضروري أن يفهم الإنسان المتعلم مجموعة القيم الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة الإنسانية الراقية، فالعلم واستخدامه في إعمار الحياة وترقيتها لا في خرابها »[1].

والعملية التدريسية تهدف إلى تأسيس فكري وثقافي سليم، يسهم في تحقيق العمران البشري لهذا الكون؛ لتتحقق رسالة الاستخلاف فيه، ويؤدي الإنسان الأمانة التي تحملها، قال تعالى:{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا}[الأحزاب:72].

هذا الهدف السامي يحتاج للوصول إليه أن يؤصل الإنسان إلى منهج تنويري يضبط التفكير وطرائقه، وينظم المسار العلمي، ويضفي هالة قيَمية وأخلاقية على مقرراته العلمية، ومناهجه البحثية.

ولأهمية هذا الهدف وضرورته وأثره في تنظيم التلقي العلمي، وضبط هذا التلقي بمنهج الريادة والقيادة، أسس القرآن الكريم له وفق مبدأ الربانية الذي يمثل حجر الزاوية في البعد الأخلاقي للعملية التعليمية، قال تعالى {كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ}[آل عمران:79]، أي: تتعلمون صغير العلم قبل كبيره، إذ الرباني هو الذي يجمعُ مع العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم، فهو بذلك يتمثل البعد القيمي في واقعه العلمي تلقيا وأداء[2].

والمتأمل في ضرورة التحلي بالقيم والآداب في المسار التعليمي، يدرك فائدتها من حيث تأصيل عالم أو باحث يراعي البعد الأخلاقي في دائرة التواصل الإنساني، بحيث لا يتجرد بعلمه عن آداب التعامل، وهذا ما أسس له القرآن الكريم بالقدوة

(1) مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، على أحمد مدكور، دار الفكر العربي، ط/ 1421هـ، 2001م، ص16.
(2) ينظر جامع البيان، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط/ الأولى، 1420هـ، 2000م، 6/ 544.

العملية في تأصيل مبدأ التوكل على الله تعالى، ولزوم مسار التوفيق المتحقق منه جل وعلا، قال تعالى ـ حكاية لقول هود عليه السلام ـ: {وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود:88]. فهود عليه السلام بين أنه يهدف إلى تحقيق الصلاح والإصلاح بقدر جهده وطاقته، داعيا الله تعالى بتحقيق ذلك(1).

وهذا البعد العملي تجسد في شخص النبي ﷺ، حيث ثبت عنه أنه قال: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه»(2)، ومعلوم أن الوالد إنما يعطف على ذريته، ويربيهم وينشئهم على القيم المثلى، والأخلاق الفاضلة.

والنبي ﷺ يهدف بذلك إلى غرس مبدأ التحلي بالسلوك والآداب في المسيرة التعليمية؛ حتى يصل الناس إلى مراتب عليا من البناء الإيجابي في الحياة، ويحققوا العمران البشري للكون.

والمعلم الناجح حقا هو الذي يغذي تلاميذه بالقيم والأخلاق قبل العلوم والتبحر فيها، وهكذا فعل موسى مع أصحابه، فبعد نجاتهم من الغرق طلبوا أن يجعل لهم معبودا غير الله تعالى، فقال لهم: {إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}[الأعراف: 138، 140]، فنراه هنا يمزج الجانب القيمي التربوي بالجانب التعليمي، حيث أوضح لهم سفههم وطيشهم، مع التذكير بتفضيل الله تعالى لهم على غيرهم من أمم زمانهم، مما يستثير نفوسهم للسير معه، وتذكر نعم الله تعالى عليهم،

(1) ينظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، ت/ أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط/ الثانية، 1384هـ، 1964م، 9/ 90.

(2) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الطهارة، باب: كراهية استقبال القبلة عند الحاجة، رقم 8، 1/ 7، شعَيب الأرنؤوط، محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط/ الأولى، 1430هـ، 2009م، قال المحققان: «إسناده قوي»، هامش رقم1، 1/ 8، وحسنه الألباني، في صحيح الجامع، رقم2346، 1/ 463.

بما حباهم به من تمييز على سائر الخلق.

وخلاصة القول أن حياة القيم والأخلاق «هي الحياة الخيرة البعيدة عن الشرور بجميع أنواعها وصورها، فكلما انتشرت هذه الحياة انتشر الخير والأمن والأمان الفردي والمجتمعي، وتنتشر أيضًا الثقة المتبادلة والألفة والمحبة بين الناس، وكلما غابت هذه الحياة انتشرت الشرور وزادت العداوة والبغضاء، والنفور والتناحر»[1].

(1) علم الأخلاق الإسلامية، مصدر سابق، ص8.

المبحث الثاني: صور من القيم في القرآن الكريم

المطلب الأول: مفاهيم مصطلحية للأخلاق والقيم

الفرع الأول: مفهوم القيمة الأخلاقية:

إذا كانت القيم بمفهومها العام تتضمن جملة من السلوكيات الإيجابية، وتنبذ السلبية في مسارات الحياة المتنوعة، فإن القيم الأخلاقية ــ بِعدِّها حقيقةَ الدين وجوهرَه ـ تمثل عمق القيم، وحقيقة القضايا الإيجابية، ومما قيل في وصفها: أنها «قيمة الأفعال أو السلوك، لا قيمة الأشياء والأفكار، وليس أي سلوك، وإنما سلوك إنسان راشد يبتغي غاية من سلوكه»، كما عرفت بأنها: «الخير»[(1)].

الفرع الثاني: المفهوم المصطلحي للأخلاق:

الخلق: «السجية والطبع والمروءة والدين»[(2)].

هي: «الصفات الطبيعية أو المكتسبة، التي يتمثل بها الإنسان على هيئة مستقيمة متناسقة»[(3)]، وعرفت بأنها: الصفات التي اكتسبت وأصبحت كأنها خلقت مع طبيعة مكتسبها[(4)].

(1) المصدر نفسه.

(2) الكليات، أيوب بن موسى الكفوي، أبو البقاء، ت/ عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ص429.

(3) علم الأخلاق الإسلامية، ص34.

(4) ينظر المصدر نفسه.

المطلب الثاني: قيم أخلاقية

الفرع الأول: الأمانة العلمية في التعليم:

الأمانة: ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب[1]، وتحمل الأمانة بمختلف صنوفها ومتعلقاتها تعهد به الإنسان منذ أصل خلقه، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[الأحزاب:72].

ويدخل في هذا العموم كل الأمانات، ومن ضمنها الأمانة العلمية التي تؤسس لتحقيق الأمن الفكري؛ إذ الأصل في البناء العلمي أن تنسب فيه المعلومات لأصحابها، بتثبت وروية وإتقان، قال تعالى: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا}[الحجرات:6].

وقد حكى لنا القرآن الكريم شيئا من معالم هذا الخلق في قصة الهدهد الذي لم يجده سليمان عليه السلام وهو يتفقد الطير، فهدده بالعذاب إن عجز عن الإتيان بسلطان مبين، فجاءه قائلا : {أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}[النمل:22].

وكذلك في قصة موسى والرجل الصالح، حيث تشارطا على عدم السؤال مقابل الأمانة في التعليم وعدم الكتمان، حتى وصلا إلى لحظة الفراق، فقال الرجل الصالح موفيا بما عاهد {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[الكهف:78]، وأخبره بأجوبة لما سأله عنه[2].

هذه القيمة الأخلاقية تقتضي لزاما الأداء لما تحمله الإنسان من معارف وعلوم، وتلزمه بعدم كتمانها، فينبغي على الإنسان أن يجتهد في طلب العلم، والتخلق بما علم، والتبليغ لما تعلم؛ لما في القرآن الكريم من حث للناس على طلب العلم،

(1) معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، 1/ 133.

(2) ينظر محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ت/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ الأولى، 1418هـ، 7/ 51، وما بعدها.

والسعي لتحصيله، وذلك بذكر لازمه، قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[المجادلة: 11].

ومن أهم العلوم وأرفعها مكانة وأسماها مرتبة العلم بالقرآن الكريم، والسعي لفهمه، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: 82].

هذه الآية الكريمة تحث الناس على إمعان النظر في حقائق القرآن واستدلالاته، إذ تدل على أن النبي ﷺ أنبأ الناس «عن الله تعالى أنه ندبهم إلى تفهمه ... فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه»[1].

وهذا هو الشأن في أهل الكتب السماوية أنهم يتلونها ويتدبرونها، قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ}[البقرة:121]، أي: «يفهمون أسراره ويفقهون حكمة تشريعه»[2].

إذ لا قيمة لقراءة الألفاظ مجردة عن الوعي بمضامينها من حيث الأثر العملي، والتوظيف الواقعي لآيات التنزيل في الحياة الإنسانية.

والالتزام بالتدبر للقرآن الكريم يبعث في نفس المتأمل خطورة الكتمان للعلم؛ لأن تدبر الكلام يتضمن النظر في العاقبة، ومن استشعر هذه الحقيقة القرآنية لا ريب أنه سيسعى إلى التمثل بها خلقا واقعيا؛ لإدراكه هذا الوجوب في تبليغ رسالات القرآن.

ويتجلى هذا التصور من مظهرين قرآنيين:

الأول: الوعيد الذي بينه لنا القرآن الكريم لمن يكتم العلم، ويبخل في تعليمه للناس.

(1) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، ت/ سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/ الثانية، 1420هـ، 1999م، 1/ 6.

(2) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، 1/ 368.

قال الله تعالى ـ منكرا على أهل الكتاب ـ: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: 187]، فهذه الآية كما ذكر ابن عباس عنت اليهود الذين سألهم النبي ﷺ «عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه، بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا } [آل عمران:187، 188]»[1].

ولكن العبرة بعمومها، حيث إنه يدخل في حكمها علماء الإسلام إن هم كتموا ما علموه[2]، قال ابن كثير: «في هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئا»[3].

كما يتكشف بما يتضمنه قول الله جل وعلا: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[آل عمران: 77]، من ذم «لأهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله»[4].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ت/ محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط/ الأولى، 1422هـ، كتاب: التفسير، باب: لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا، رقم 4568، 6/ 40.

(2) ينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي، ت/ عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ الأولى، 1422هـ، 1/ 551، ويشهد لهذا قول النبي ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار. وقد قال أبو هريرة: إني لأحدثكم حديثا، ولولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه. ثم تلا إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب». المصدر نفسه.

(3) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، 2/ 181.

(4) المصدر السابق، 1/ 6.

الثاني: الأمر بالبيان. «القرآن الكريم لم يكتف بالوعيد على الكتمان، بل أمر ببيان هداه للناس، وبالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوعد من يترك هذه الفريضة، وذكر لهم العبر فيما حكاه عن الذين قصروا فيها من قبل»(1).

وهذا البيان يمثل المرحلة العملية للعلم الذي يكتسب، إذ لا يصح التصدر للتعليم لمن كان جاهلا، بل الواجب على الداعية والمعلم والمبين أن يكون عالما بما يقوله ويبديه للمتلقين؛ ليتحقق الأثر الإيجابي من كلامه، وترق قلوب السالكين إلى الله تعالى رغبا ورهبا، وتتخلق بمقام الخشوع من ذكر الله.

ولا يكون ذلك إلا بتعلم «كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه»(2).

الفرع الثاني: العدل:

الناس في الميول إلى التعلم متفاوتون، فمنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات، وثالث ظالم لنفسه لا يسعى لتبني التطوير الذاتي بالتعلم، والمعرفة.

ولعله من فقه الأولويات أن يبحث الإنسان في مسيرة تعلمه عن مصادر التأصيل العلمي الذي يبني به فكره، ويطور به ذاته، ويؤهل نفسه إلى مواجهة تحديات الحياة، وما تتطلبه من تراتيب علمية تنموية تكون نبراسا يقوده لإرساء القيم والمبادئ الإسلامية السامية.

ولعلنا ندرك هذا الأمر من المشهد القرآني الذي صوره لنا القرآن الكريم في قول الله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى}[عبس:1]، حيث جاء الرجل الكفيف عبد الله بن أم مكتوم باحثا عن العلم، آملا في تحصيله بما يحقق له مطلب النجاة، ومبدأ السلامة، بالتبعية الدينية، والانتماء الفكري السليم المنجي.

التمس هذا الأمر من معينه الأصيل؛ ليكون أسلم وأنقى من أي علم يوصل إليه بواسطة، خشية أن يشوبه نقص بشري يقلل من قيمته.

(1) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مصدر سابق 1/ 368.
(2) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، 1/ 6.

في هذه اللحظة التاريخية التي طلب فيها هذا الرجل التعلم، وقع خلاف ما يأمله، حيث أعرض عنه النبي ﷺ اعتقادا منه أن نصرة الدين بالرجل الوجيه في قومه ذات فائدة متعدية، حيث يتعاظم أمل اللحاق به من الأتباع والوضعاء من قومه.

لم يكن الاعتراض رفضا، وحقدا على أحد، لكن مع ذلك كان المشهد موحيا ـ في ظاهره ـ بعدم تحقق العدالة؛ مما ترتب عليه العتاب القرآني للنبي ﷺ بأن عبوسه وتوليه عن ذلك الكفيف، عديمِ المكانة في أهله لم يكن صوابا، فلربما يزكى، أو ينتفع بما يتلقاه من الذكرى.

هذا الإرشاد للنبي ﷺ فيه درس عملي للمعلم في التعامل مع طلبته، وسائليه، فينبغي أن يرتب التواصل معهم بحسب الأولوية، لا بحسب المقام أو المكانة الاجتماعية، وغيرها من صور التمايز الأخرى التي تتعارض مع ضبط آليات التواصل العلمي.

ومن العدل في التعليم منح الفرص للمتعلم؛ لأن البداية قد يصحبها التعثر، بسبب عدم الخبرة في تقدير الأمور.

يظهر هذا الدرس في رحلة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، حيث تشارطا على آلية معينة، تقتضي عدم استفسار موسى عليه السلام مع العبد الصالح عن أي شيء، وما لبثا أن انطلقا حتى بدأت الأسئلة تتوالى منه، مخالفا الاتفاق المبرم بينهما، لكن المنهج العادل في التعليم فرض على العبد الصالح أن يتجاوز عن الخطأ، ويعدد منح الفرص لتلميذه، ولم ينه مجال الخطأ على عجل.

ومن العدل في التعليم توضيح المادة العلمية للطالب قبل البداية، وهو ما يعرف بمخطط المادة؛ لأن ذلك يكون أدعى لتهيئته لتقبلها وتلقيها والإفادة منها.

هذا المنهج الإلهي حكاه القرآن الكريم في شأن آدم عليه السلام، قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[البقرة: 31]، حيث «علمه أسماء الأشياء كلها: ذواتها وأفعالها»(1)، قبل أن تبدأ مناظرته مع الملائكة ـ الذين كانوا يعلمون أمورا غيبية

(1) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، 1/ 223.

خصهم الله عز وجل بها ـ حتى لا يقف مشدوها أمامهم، عاجزا عن تصور خطابهم معه.

ومن العدل أن يحسن المعلم تكليف المتعلمين، وتدريبهم، وتدريسهم بحسب إمكاناتهم، وميولهم، فقد حكى ابن القيم مثل هذا في حال الوالد من أنه مطالب بأن «يعتمد، حال الصبي، وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، مما كان مأذونا منه شرعا، فيعلم أنه مخلوق له، فلا يحمله على غيره، فإنه إن حمل على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه، وفاته ما هو مهيأ له»(1).

والمعلم في الحقيقة أشرف لمريديه من والدهم، إذ هو الوارث للمهمة النبوية في تعليم الفضيلة(2).

الفرع الثالث: التقوى والتعليم:

التقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف، وشرعا هي: «حفظ النّفس عمّا يؤثم، وذلك بترك المحظور»(3).

هذا المفهوم للتقوى يدلنا على عمق الصلة بين المتقي وربه، مما يترتب عليه المعية الإلهية لمن تحقق بمقام التقوى، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا}[النحل:128]، فمن كان هذا حاله في الصلة بالله، لا شك أنه سيوفق للخير في سائر شؤونه.

كما وعد الله تعالى من يتقيه بأن يجعل له فرقانا، يفصل به بين أمرين، هما الحق والباطل؛ لأن من اتقى «الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم

(1) تحفة المودود بأحكام المولود، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت/ عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ط/ الأولى، 1391هـ، 1971م، ص243.

(2) ينظر الذريعة إلى مكارم الشريعة، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى/ د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، 1428هـ، 2007م، ص178.

(3) مفردات غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، صفوان عدنان الداوودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط/ الأولى، 1412هـ، ص881.

القيامة»[1]، قال تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ}[الأنفال: 29].

ومن أبرز ما يغنمه الإنسان من التحلي بالتقوى والعمل الصالح أنه يدخل في رحمة الله جل وعلا، ويسخر الله تعالى له نورا يخالطه في حركيته، قال جل وعلا: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ}[الحديد: 28] .

ومن معالم هذا النور ولا شك أنه يتحلى بمعرفة العلوم التي ترفع مقامه، وتفتح له آفاق المعرفة، وتنور بصيرته، وتربي في نفسه معالم الانتماء المعرفي العلمي، الذي يعد مقياسا في التمايز بين الناس، قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[المجادلة:11].

ومما تتضمنه هذه الآية بيان تفاوت منازل العلوم وتفاوت أربابها، حيث ميزهم الله تعالى عن غيرهم من الناس.

هذا التميز العلمي عندما يصاحبه انتماء إيماني لا شك أن صاحبه يرتقي، ويعان من الله تعالى، فيفتح له من خزائن علمه ما يزيده رفعة ومكانة ومقاما.

فالتقوى وإن لم تكن شرطا للتعليم إلا أنها تمثل قيمة معنوية ينبغي أن يتخلق بها المتعلم والمعلم، ويتسم بها في مرحلة التحصيل والأداء العلمي؛ ليحقق المستوى المؤمل من التميز.

---

(1) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، 4/ 43.

المطلب الثالث: قيم عملية

الفرع الأول: الهمة والجد:

قيمة العمل بقدر ما يصرف له الإنسان من الوقت والجهد والاهتمام؛ لأن ذلك سينعكس لزاما على نتائجه ومخرجاته وآثاره، فإن حصَّنه بالهمة والجد وقع محكما رصينا مضبوطا، وإن انشغل عن إحكامه جعله عرضة لشوائب النقص والخرم والخلل.

ولأهمية هذه القيمة ورد الخطاب بها في قول الله عز وجل مخاطبا موسى عليه السلام: {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ}[الأعراف: 145]، أي: «بجد وصبر عليها واحتمال لمؤنها»[1]، فهو المعلم والمربي الذي سيتبعه الناس، فكان الإعداد له يقتضي التقوية لسلوكه، والجد في عمله وقراره؛ حتى يتأسى به قومه، ولذلك عقب الأمر الموجه له بقول الله سبحانه: {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}[الأعراف: 145]، ومعلوم أن التعليم بالقدوة العملية أدعى للاستجابة والاتباع.

ومن ذلك التوجيه القرآني للناس أن يأخذوا بالأحسن، ويحملوا أنفسهم على الأولى والأفضل، وهذا يحتاج لهمة وجد، قال تعالى: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}[الزمر:55].

والتربية العملية لها أثرها أكثر من التأسيس النظري، فلو أقام المعلم تدريس طلبته بطريقة السؤال لإثارة أذهانهم، لكان ذلك أدعى إلى التنبيه «على موضع إشكال يطلب رفعه، أو اختبار عقله أين بلغ، والاستعانة بفهمه إن كان لفهمه فضل، أو تنبيهه على ما علم؛ ليستدل به على ما لم يعلم»[2].

الفرع الثاني: إرجاع الأمر لأهله:

التعلم الإيجابي هو الذي ينعكس على سلوك محصله، فتراه يعرف قدر نفسه،

(1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مصدر سابق، 2/ 452.

(2) الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، ت/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط/ الأولى 1417هـ، 1997م، 5/ 371.

ولا يعتلي مقامات ليس هو لها أهل، إنما يرجع كل شيء لأهله.

ولنا في القرآن الكريم تبيين لهذه القيمة، فهذا ملك مصر يطلب من ملأه أن يعبروا له الرؤيا؛ لإدراكه أهمية إرجاع الأمر لمن يغلب على الظن أنهم يوجدون له تبيانا وتفهيما، فقال لهم: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ}[يوسف: 43]

وكذلك كان حال الفتى الذي رافق يوسف عليه السلام في السجن واستفاد منه تأويل الرؤيا، فقد استأذن الملك أن يبعثه إلى رجل يؤول له هذه الرؤيا، فذهب مسرعا قاصدا يوسف عليه السلام وهو في سجنه.

ذهب إليه؛ لأنه أيقن أنه أهل لهذا الأمر من خلال واقعة سابقة عايشه فيها، أيقن أن الناس يتفاوتون في معارفهم وعلومهم، فهرع إلى أهل الشأن.

قال تعالى: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}[يوسف: 44، 48]

ولنا في قصة الخصمين اللذين احتكما لداود عليه السلام عبرة وعظة، نستوضح منها سلامة الفطرة في اتباع مسالك النجاة والسلامة، حيث تحاكما عند من عرفا من حاله أنه أهل لحل النزاعات، والفصل في الخصومات، قال تعالى واصفا لمقامه: {وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ} [ص: 20]، وقال سبحانه: {يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}[ص:26].

ومن القصص التي أبرزت لنا معالم هذه القيمة، ما صوره لنا القرآن الكريم من مشهد تعليمي ريادي بين موسى والخضر، حيث طلب موسى من الخضر عليهما

السلام أن يفسح له المجال في اتباعه ليتعلم منه، فقال له: {هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت} «سؤال بتلطف، لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم»[1].

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن موسى عليه السلام بنى طلبه هذا على ما تلمسه من معرفة وعلم عند هذا العبد، الذي وصفه القرآن بقوله: {عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}[الكهف: 65]

الفرع الثالث: التدرج في التعليم:

منهج الإنسان في التعلم يرتكز على التدرج، ويظهر ذلك من القاعدة القرآنية المصرح بها في قول الباري سبحانه: {كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُم تَدْرُسُونَ}[آل عمران: 79].

هذه القاعدة التي تربي الإنسان على مبدأ التدرج في تعلم العلم وتعليمه؛ فلا يكون الإنسان ربانيا إلا إذا اكتسب المعارف مرتبة من الصغير إلى الكبير، ثم ترقى إلى مستوى تعليم غيره، «قال المبرد: هم أرباب العلم سموا به لأنهم يربون العلم، ويقومون به ويربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها»[2].

و«الإنسان يكون ربانيا بعلم الكتاب ودرسه، وبتعليمه للناس ونشره، ومن المقرر أن التقرب إلى الله تعالى لا يكون إلا بالعمل بالعلم، والعلم الذي لا يبعث إلى العمل لا يعد علما صحيحا؛ لأن العلم الصحيح ما كان صفة للعالم، وملكة راسخة في نفسه وإنما الأعمال آثار الصفات والملكات، والمعلم يعبر عما رسخ في نفسه، ومن لم يحصل من علم الكتاب إلا صورا وتخيلات تلوح في الذهن ولا تستقر في النفس لا يمكنه أن يكون معلما له يفيض العلم على غيره»[3]؛ لأنه بذلك يكون مخالفا لمبدأ التدرج في التعلم والتعليم.

(1) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، 1/ 223.
(2) معالم التنزيل في تفسير القرآن، (تفسير البغوي)، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود، الفراء البغوي، ت/ عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، 1420هـ، 1/ 463.
(3) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مصدر سابق، 3/ 286.

والدرجية في التعليم تظهر من ملاحظة التعبير القرآني في شأن سليمان عليه السلام، قال تعالى: {فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ}[الأنبياء:79]، حيث بين أن سليمان يتمتع بمرتبة أدق وأرفع من مرتبة الحكم والعلم التي وهبها داود عليه السلام، كما عبر عنها الوحي بقوله جل وعلا: {وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً}[الأنبياء:79].

فيظهر جليا أن سليمان عليه السلام خص دون داود بالتفهيم، وشاركه في النبوة، والعلم بأحكام الله تعالى، مثل سائر الأنبياء المذكورين في السورة.

هذا هو المنهج القرآني الذي ينبغي أن يتخلق به السالكون مفاوز التعليم، دون استصعاب أو ملل، من غير تضجر أو كلل، حتى يحيطوا بالعلوم، ويهتدوا إلى مسالك النجاة.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا ما يسر الله بيانه في هذا البحث الذي توصل إلى النتائج التالية:

1/ أهمية معرفة مكانة القيم وأثرها في المجال العلمي.

2/ لا ينفك العمل التعليمي عن القيم الأخلاقية.

3/ ضرورة تجسيد المفاهيم الأخلاقية في الواقع العملي.

4/ اعتنى القرآن الكريم ببيان عدد من القيم التي تدعم التربية العملية.

توصية:

توصي هذه الدراسة بالاعتناء بجمع النصوص في بحث استقرائي تام؛ لبيان التصور الشامل للتأسيس الأخلاقي من المنظور القرآني.

المصادر

- تحفة المودود بأحكام المولود، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت/ عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ط/ الأولى، 1391هـ.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، ت/ سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/ الثانية، 1420هـ، 1999م.
- جامع البيان، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط/ الأولى، 1420هـ، 2000م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، ت/ أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط/ الثانية، 1384هـ، 1964م.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى/ د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، 1428هـ، 2007م
- سنن أبي داود، شعَيب الأرنؤوط، محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط/ الأولى، 1430هـ، 2009م.
- صحيح البخاري، (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ت/ محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط/ الأولى، 1422هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي، ت/ عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت،

ط/ الأولى، 1422هـ.

- صحيح الجامع، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
- علم الأخلاق الإسلامية، مقداد يالجن محمد علي، دار عالم الكتب، الرياض، ط/ الأولى 1413هـ، 1992م، ط/ الثانية، 1424هـ، 2003م.
- القيم الإسلامية، كتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الكفوي، أبو البقاء، ت/ عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط/ الثالثة، 1414هـ.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ت/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ الأولى، 1418هـ.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن، (تفسير البغوي)، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود، الفراء البغوي، ت/ عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط/ الأولى، 1420هـ.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء الرازي، ت/ عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م.
- مفردات غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، صفوان عدنان الداوودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط/ الأولى، 1412 هـ.
- مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، على أحمد مدكور، دار الفكر العربي، ط/ 1، 1421هـ، 2001م.